وقالوا : يا رسول الله ، ومَنْ منا لم يخالط إيمانه ظلم ؟ فهدَّأ رسول الله من رَوْعهم وطمأنهم أن المراد بالظلم هنا ظلم القمة أى : الشرك بالله ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) ﴾

أهذه وصية من وصايا لقمان لابنه ، أم هى كلام جديد من الله تعالى جاء فى سياق كلام لقمان ؟ قالوا(١) : هو من كلام الحق تبارك وتعالى ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا .. (١٥) ﴾ [لقمان]

ومن التكريم للقمان أن الله تعالى ساق هذه الوصية بعد وصيته لابنه ، فجاءت وكأنها حكاية عنه .

ومعنى ﴿ وَوَصَّيْنَا .. (١٤) ﴾ [لقمان] يعنى : علَّمنا ووعظنا ، وهما يدلان على معلومات تبتدىء بعلمنا ويذكر بها فى وعظنا ، ويُوفى بها

---

(١) قيل : إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه ، أخبر الله به عنه ، أى : قال لقمان لابنه : لا تشرك بالله ولا تطع فى الشرك والديك ، فإن الله وصى بهما فى طاعتهما مما لا يكون شركاً ومعصية لله تعالى .

وقيل : وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك ، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وأمرنا الناس بهذا ، وأمر لقمان به ابنه .

قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٣٢٠) : « ذكر هذه الأقوال القشيرى . والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص وعليه جماعة المفسرين » .

حين جمعنا كل الخير فى كلمة واحدة ؛ لذلك فالنبى ﷺ عندما خطب الناس فى حجة الوداع[1] ذكر أمهات الفضائل ، لماذا ؟ لأنه آخر كلامه إليهم ، والموقف لا يناسب أنْ يذكر فيه تفاصيل الدين كله ، فاكتفى بذكر أسسه وقواعده ، كالرجل منّا حين تحضره الوفاة يجمع أولاده ، ويوصيهم ، فيختار الأمور الهامة والخلاصة فى أضيق نطاق.

الله تعالى يقول : ﴿ ووَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

والوصية بالوالدين بالذات أخذتْ رقعة واسعة فى كتاب الله ، فى هذه الآية ذكر علة الوصية ، فقال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

وفى خمس آيات أخرى وردتْ كلمة (إحساناً) ، فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٨٣) ﴾ [البقرة]

وفى سورة النساء : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦) ﴾ [النساء]

وفى الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

وفى الإسراء : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة هذه الحجة « أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تُظلمون .. » الخطبة بتمامها أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٦٠٣ ، ٦٠٤) .

وفى الأحقاف : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

وفى آية واحدة وردت كلمة (حسناً) فى سورة العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨) ﴾ [العنكبوت]

وفى آية واحدة أيضاً جاءت الوصية بالوالدين دون ذكر لهاتين الكلمتين : (حُسْناً وإحساناً) هى الآية التى نحن بصدد الحديث عنها .

لكن ، ما الفرق بين (إحساناً) و (حُسناً) ؟ الفرق أن الإحسان مصدر أحسن ، وأحسن حدث ، تقول : أحسن فلان إحساناً . أما حُسناً فمن الحسن وهو المصدر الأصيل لهذه المادة كما تقول : فلان عادل ، فوصفته بالعدل ، فإنْ أردتَ أنْ تبالغ فى هذا الوصف تقول : فلان عَدْل أى : فى ذاته ، لا مجرد وَصْف له .

إذن : فحُسْناً آكد فى الوصف من إحساناً ، فلماذا جاءت فى هذه الآية بالذات : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا (٨) ﴾ [العنكبوت] قالوا : لأن هذه الآية تتعرض لمسألة صعبة تمسُّ قمة العقيدة ، فسوف يطلب الوالدان من الابن أنْ يشرك بالله .

لذلك احتاج الأمر أنْ نوصى الابن بالحُسْن فى ذاته ، وفى أسمى توكيداته فلم يقُلْ هنا (إحْسَاناً) إنما قال (حُسْناً) حتى لا يظن أن دعوتهما إياه إلى الشرك مبرر لإهانتهما ، أو التخلى عنهما ؛ لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (١٥) ﴾ [لقمان]

وإنْ كانت الوصية هنا بالوالدين إلا أن حيثيات الوصية خاصة بالأم ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ (١٤) ﴾ [لقمان] فلم

يذكر شيئاً عن دور الأب ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكلام هنا كلام رب ، وما عليك إلا أنْ تُعمل فيه فكرك وقلبك لتصل إلى دقائقه .

الله تعالى يُذكِّرنا هنا بدور الأم خاصة ، لأنها تصنع لك وأنت صغير لا تدرك صُنْعها ، فهو مستور عنك لا تعرفه ، أما أفعال الأب وصنعه لك فجاء حال كِبَرك وإدراكك للأمور من حولك ، فالابن يعرف ما قدَّم أبوه من أجله .

فكأن أفعال الأب وُجدت حين تم تكوين العمر العقلى الواعى ، ففهم الابن ما فعل أبوه ، وكثيراً ما سمع الابن : أبوك ذهب إلى كذا ، أبوك أحضر لك كذا ، وهذا الأمر عندما يأتى أبوك .. الخ ، فدورْ الأب ظاهر على خلاف دور الأم ؛ لذلك ذكره الحق - تبارك وتعالى - هنا ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ (١٤) ﴾ [لقمان]

ويأتى مَنْ يقول : أليس الابن نتيجة التقاء الأب والأم ، فهما فيه سواء ؟ ونقول : بلى ، لكن مشقة الأم فيه أوضح أثناء الحمل وعند الولادة ، ولولا أن الله تعالى ربط النسل بالشهوة لَزهدَ الناس فيه لما تتحمله الأم من مشاق ، ولما يتحمله الأب من تبعات الأولاد .

ونعرف قصة المرأة التى ذهبت تقاضى زوجها لأنه يريد أنْ يأخذ ولدها منها ، فقالت للقاضى وقد قال لها : أليس الولد ولدكما معاً ؟ قالت : بلى ، ولكنه حمله خفّاً ووضعه شهوة ، وحملتُه وهناً على وهن ، فحكم لها .

ومعنى : ﴿ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤) ﴾ [لقمان] أى : ضعفاً على ضعف ، والمرأة بذاتها ضعيفة ، فاجتمع لها ضعفها الذاتى مع ضعف بسبب الجنين الذى يتغذى منها ، ويكبر فى أحشائها يوماً بعد يوم ؛ لذلك قلنا : إن من حكمة الله تعالى فى خَلْق الرحم أنْ جعله قابلاً

للتمـدد والاتساع ليحتـوى الجنين فى مراحل الحمل المخـتلفة إلى أنْ يزيد الجنين زيادةً لا يـتحـملهـا اتساع الـرحم فينفـجـر إيذاناً بولادة إنسان جديد وخَلْق آخر كـما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

فالجنين كان خَلْقاً تابعاً لأمه في غذائه وفى تنفسه وحركته ، لكن حينمـا جاء أمر الله وأذن بميـلاده أنشأه خَلْقاً آخـر له مُقوِّمات حـياة مستقلة غير متصل بأمه .

ويقولون فى هذه العملـية (القرن طش) كما تنفـجر البالونة إذا نُفخت لدرجة أكثـر مما تتحمل ، ومن العجـيب أن الرحم يتسع بقدرة الله لعدة توائم كما نرى ونسمع .

ومن عظمة الخالق سبحانه فى مسألة الرزق أن رزق الجنين يأتيه منفصلاً عن رزق أمه ، فلكل منهما رزق لا يأخذه الآخر ، ومعلوم أن المـرأة حين يُقـدَّر لها حَـمْل ينقطع عنها الدم الذى كـان ينزل بصـفة دورية حال فراغ الرحم من الحـمل ، هذا الدم هو الذى جعله الله غذاءً للجنين الجديد .

أما إذا لم يُقدَّر لها حمل فإنَّ جسمها يطرد هذا الدم ويتخلص منه ولا يستفيد به ، لماذا ؟ لأنه ليس غذاءها ، وكأن الخالق ـ عز وجل ـ يُنبِّهنا أن لكل منا رزقه الذى لا يتعدَّاه إلى غيره .

وأيضـاً من حكمـتـه تعـالى فى وَضْع الجنـين فى بطن أمـه عند الولادة أنْ ينزل برأسه ، وهذا هو الوضـع الطبيعى لولادة طفل سليم ؛ لأن أول ضروريات الحـياة للطفل سـاعةَ ينفصل عن أمـه أنْ يتنفس ، فـإذا نزل برأسـه ـ وهذا الوضـع يحـاول أطباء الولادة التـأكـد منه ـ اسـتطاع التنفس حتى وإنْ تـعسـر نزول باقى جسـمه ، أمَّـا إنْ نزل

الطفل بعكس هذا الوضع فإنه يختنق ويموت قبل أنْ يتم نزوله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان] الفصال : أى الانفصال عن الأم فى مسألة الرضاعة ، ومنه : يسمون ولد الناقة الذى استغنى عن لبنها : الفصيل أى الذى فُصل عن أمه ، وأصبح قادراً على أنْ يأكل ، وأن يعيش دون مساعدتها ، وحتى عملية فصال الولد عن أمه فيها مشقة وألم للأم .

أما العملية الجنسية التى أثمرتْ الولد فكانت شركة بينهما ، وبذلك لا بُدَّ أن نعترف أن للأم الدور الأكبر وعليها العبء الأكبر فى مسألة الأولاد ؛ لذلك كان لها الحظ الأوفر فى وصية النبى ﷺ للصحابى الذى سأله : مَنْ أحق الناس بحُسْن صحابتى يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك[1] ، فأعطى كلاً منهما على قدر ما قدَّم .

ومسألة الفصال هذه شُرحت فى آيات أخرى ، ففى سورة البقرة : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة] وهذه تؤكد ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

وفى آية أخرى تجمع الحمل والرضاعة معاً : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] وبخصم العامين من الثلاثين شهراً يكون الباقى ستة أشهر ، وهى أقلّ مدة للحمل .

وهذه المسألة اعتمد عليها الإمام على ـ رضى الله عنه ـ حينما

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة ، من حديث أبى هريرة قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك » .

رأى عُمَر رضى الله عنه يريد أن يُقيم الحد على امرأة ولدتْ لستة أشهر ؛ لأنه يعتقد أن مدة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : يا أمير المؤمنين ، الله يقول غير ذلك ، فقال : وماذا يقول الله ؟ فذكر عليٌّ الآيتين السابقتين[1] :

﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

والأخرى : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) ﴾ [لقمان]

ثم بيَّن له عليٌّ أن أقلَّ مدة للحمل بناءً على هاتين الآيتين ستة أشهر ، فقال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[2] .

وقوله تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) ﴾ [لقمان] فالله تعالى هو المستحق للشكر أولاً ؛ لأنه سبحانه هو الذى أنشأ من عدم ، وأمدَّ من عُدْم ، ثم الوالدان لأنهما السبب فى الإيجاد وإنشاء الولد .

فكأن الحق سبحانه مسبِّب أعلى ؛ لأنه خلق من لا شيء ، والوالدان سبب من أسباب الله فى الوجود ، إذن : لا تُحسن شكر الله

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/١٥٧) : « قد استدل علي رضى الله عنه بهذه الآية ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] مع التى فى لقمان ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوى صحيح ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة .

(٢) أخرج الحاكم فى مستدركه (١/٤٥٧) والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى قال : « حججنا مع عمر رضى الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » وهو حديث طويل وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : « أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن » ، وذلك بعد أن قال له على : بل إنه يضر وينفع !! أليس يشهد يوم القيامة لمن قبَّله ؟

الخـالق الأول والمـسـبِّب الأعلى حـتى تُحـسـن شكر الوالدين ، وهمـا السبب الثانى فى وجودك .

فقوله سبحانه : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان] أى : على الإيجاد ، لكن فى مـوضـع آخر : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] وهذه للإيجاد وللتربية وللرعاية ، فكما أن هناك أبوةً للإيجاد هناك أبوة للتربية ، فكثيراً ما نجد الطفل يربيه غير أبيه وغير أمـه ، ولا بُدَّ أنْ يكون لهؤلاء نصيب من الشكر ومن الولاء والبرِّ ما دام أن الله تعـالى ذكرهم فى العلة ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء]

والعـلـة تـدور مع المـعـلـول وجـوداً وعـدمـاً ، فـإذا لـم يكُـنْ للأب الحقـيقى وجود ، فالأبـوة لمن ربَّى ، وله نفس حـقوق الأب من حيث الشكْـر والبـر والمودة ، بل ينبغـى أن يكـون حقُّـه مضاعـفاً ؛ لأن فـى الأب الحـقـيقـى عطـف البُـضـع على البُـضـع ، وفى الأب المـربِّـى عطف الدين على الدين ، وهذه مـسـألة أخرى غـيـر مجـرد الأبوة .

لكن ، هـل شكر الله أولاً دُرْبة علـى أنْ تشكر الوالـدين ، وهمـا السبب المباشر فى وجودك ؟ أم أن شكرَ الوالدين دربةٌ على أن تشكر الله الذى خلقك وأوجدك ؟ نقـول : هما معاً ، فـشُكْر الله يستلزم شكْر الوالدين ، وشكر الوالدين ينتهى إلى شُكْر الله .

وقوله : ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان] أى : المرجع ، والـمعنى : أننى أوصيك بأهم شىء فاحذر أنْ تخـالف وصيتى ؛ لأننى أقدر على أنْ أعاقب مَنْ خالف .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يؤكد الحق سبحانه على أمر الوالدين ، وكأنه سبحانه استدرك غير مُستدَرك ، فليس لأحد أنْ يستدرك على الله ، وكأن واحداً كان يناقش رسول الله ﷺ فى أمر الوالدين وما نزل فى شأنهما ، فسأل : كيف لو أمرانى بالكفر ، أأكفر طاعةً لهما ؟ لذلك جاء الحكم من الله فى هذه المسألة .

وفى آية العنكبوت : ﴿ ووَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

---

(١) سبب نزول الآية : قال سعد بن أبى وقاص : نزلت فيَّ هذه الآية ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان] كنت رجلاً براً بأمى . فلما أسلمتُ قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيَّر بى ، فيقال يا قاتل أمه . قلت : يا أمه لا تفعلى فإنى لا أدع دينى هذا لشىء ، فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة وقد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى هذا لشىء ، فإن شئت فكلى وإن شئت فلا تأكلى ، فلما رأت ذلك أكلت ، فنزلت هذه الآية . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥٢١/٦) وعزاه لأبى يعلى والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن أبى عثمان النهدى .

فذكر فيهـا (حُسْنًا) ولم يقل فيها ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمـان] فكأن كلمـة الحُسْن ، وهـى الوصف الجـامع لكلِّ مدلولات الحُسْن أغنتْ عن المصاحبة بالمعروف .

ومعنى ﴿ جَاهَدَاكَ .. (١٥) ﴾ [لقمان] نقول : جاهد وجهد ، جهد أى فى نفسه ، أما جاهد ففيها مفاعلة مع الغير ، نقول : جاهد فلان فلاناً مثل قاتل ، فهى تدل على المشـاركة فى الفعل ، كما لو قلت : شارك عمرو زيداً ، فكل منهما فاعل ، وكل منهما مفعول ، لكن تغلب الفاعلية فى واحد ، والمفعولية فى الآخر .

فمعنى ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ .. (١٥) ﴾ [لقمان] لا تعنى مجرد كلمة عَرَضًا فيها عليك أن تشرك بالله ، إنما حدث منهـما مجهود ومحاولات لجذبك إلى مجاراتهمـا فى الشرك بالله ، فإن حدث منهما ذلك فنـصيحتى لك ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا .. (١٥) ﴾ [لقمان]

ثم إياك أنْ تتخـذ من كفرهمـا ودعوتهمـا لك إلى الكفر سبـباً فى اللدد معهـما ، أو قطع الرحم ، فحتى مع الكفر يـكون لهما حق عليك ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] ثم إنهما كفرا بى أنا ، وأنا الذى أوصيك بهما معروفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ .. (١٥) ﴾ [لقمان] أى : لن تكون وحدك ، إنما سبقك أُناسٌ قبلك تابوا وأنابوا فكُنْ معهم ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ .. (١٥) ﴾ [لقمان] أى : مأواكم جميعاً .

قـالوا : إن هذه الآية نزلت فى سعـد بن أبى وقاص ، الذى قـال

فيه رسول الله ﷺ : « خالى سعد ، فليُرنى امرؤ خاله »[١] ولما أسلم سعد غضبت أمه[٢] ـ وكانت شديدة الحب له ـ فكادت تُجَنُّ وحلفتْ لا تأكل ولا تشرب ولا تغتسل ، وأنْ تتعرَّى فى حَرِّ الشمس حتى يرجع عن دينه ، فلما علم سعد بذلك قال : دعوها والله لو عضَّها الجوع لأكلتْ ، ولو عضَّها العطش لشربتْ ، ولو أذاها القمل لاغتسلتْ ، أما أنا فلن أحيد عن الدين الذى أنا عليه ، فنزلت ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ .. (١٥) ﴾ [لقمان]

ولو أن الذى يكفر بالله ويريد لغيره من المؤمنين أنْ يكفر معه كابن أو غيره ، ثم يرى وصية الله به رغم كفره لعلم أن الله تعالى رب رحيم لا يستحق منه هذا الجحود .

وسبق أن ذكرنا الحديث القدسى الذى قالت فيه الأرض : « رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك ، وقالت السماء : رب ائذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : ياَ رب ائذن لى أن أُغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك .. الخ ، فقال الحق تبارك وتعالى : لو خلقتموهم لرحمتموهم »[٣] .

---

(١) ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة » (ترجمة ٣١٨٧) وعزاه للترمذى من حديث جابر قال : أقبل سعد فقال النبى ﷺ : « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » . وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٩٨/٣) وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وابن سعد فى الطبقات (١٢٨/٣) .

(٢) هى : حمنة بنت سفيان بن أمية . قال ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة ٣١٨٧) فى ترجمة ابنها سعد : « هى بنت عم أبى سفيان بن حرب ابن أمية » .

(٣) أورده الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ولفظه « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به . واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً . فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه . ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ذلك لأنهم عباد الله وصَنْعته ، وهل رأيتم صاحب صنعة يُحطِّم صنعته ، وجاء فى الحديث النبوى « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضله فى أرض فلاة »(١) .

إذن : فنِعْمَ الرب هو .

ويُروى أن سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ جاءه ضيف ، فرأى أن سَمْته غير سَمْت المؤمنين ، فسأله عن دينه فقال : إنه من عُبَّاد النار ، فردَّ إبراهيم الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، فعاتب الله نبيه إبراهيم فى شأن هذا الرجل فقال : يا إبراهيم ، تريد أن تصرفه عن دينه لضيافة ليلة ، وقد وَسِعْتُه طوال عمره ، وهو كافر بى ؟

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب الله له ، فقال الرجل : نِعْمَ الرب ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، ثم شهد ألاَّ إله إلا الله .

فلو أن الكافر الذى يريد الكفر لغيره يعرف أن الله يوصى به وهو كافر ، ويُرقِّق له القلوب لَعاد إلى ساحة الإيمان بالله ؛ لذلك كثيراً ما نقابل أصحاب ديانات أخرى يعشقون الإسلام فيختارونه ، فيغضب عليهم أهلهم فنقول للواحد منهم : كُنْ فى دينك الجديد أبرَّ بهم من دينك القديم ، ليعلموا محاسن دينك ، فضاعف لهم البر ، وضاعف لهم المعروف ، لعل ذلك يُرقِّق قلوبهم ويعطفهم نحو دينك .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى لفظ عند مسلم « لله أشد فرحاً بتوبة عبده ، حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

وتأمل عظمة الأسلوب فى ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] فلم يقل مثلاً أعطهم معروفاً ، إنما جعل المعروف مصاحبة تقتضى متابعتهما وتفقُّد شأنهما ، بحيث يعرف الابن حاجة أبويْه ، ويعطيهما قبل أنْ يسألا ، فلا يلجئهما إلى ذُلِّ السؤال ، وهذا فى ذاته إحسان آخر .

كالرجل الذى طرق بابه صديق له ، فلما فتح له الباب أسرَّ له الصديق بشىء فدخل الرجل وأعطى صديقه ما طلب ، ثم دخل بيته يبكى فسألته زوجته : لم تبكى وقد وصلْته ؟ فقال : أبكى لأننى لم أتفقد حاله فأعطيه قبل أن يذلَّ نفسه بالسؤال .

والحق - تبارك وتعالى - حين يقول بعد الوصية بالوالدين : ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان] إنما لينبهنا أن البرَّ بالوالدين ومصاحبتهما بالمعروف لن يُنسى لك ذلك ، إنما سيُكتب لك ، وسيكون فى ميزانك ؛ لأنك أطعتَ تكليفى وأمرى ، وأدَّيْتَ ، فلك الجزاء لأنك عملتَ عملاً إيمانياً لا بُدَّ أن تُثاب عليه .

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ (١٦) ﴾

﴿ يَٰبُنَيَّ .. (١٦) ﴾ [لقمان] نداء أيضاً للتلطف والترقيق ﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .. (١٦) ﴾ [لقمان] يريد لقمان أن يدل ولده على صفة من صفات الحق سبحانه ، هى صفة العلم المطلق الذى لا تخفى عليه خافية ، وكأنه يقول له : إياك أن تظن أن ما يخفى على الناس

يخفى على الله تعالى ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾[الملك]

وكما أن الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل ، حتى إن كانت فى باطن صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الأرض ، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيئة مهما دَقَّتْ ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها .

وقلنا : إن المستشرقين وقفوا عند مسألة علم الله الخفى بخفايا خَلْقه ، وعند قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء] يقولون : الله يمتنُّ بعلم ما نكْتُم ، فكيف يمتنُّ بعلم الجهر ، وهو معلوم للجميع ؟

ونقول : الحق سبحانه فى قوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء] لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جماعة ، فهو يعلم جَهْر الجماعة فى وقت واحد ، ومثَّلْنا لذلك بمظاهرة مثلاً ، فيها الآلاف من البشر يهتفون بأصوات مختلفة وشعارات شتى ، منها ما يعاقب عليه القانون ، فهل تستطيع مع اختلاط الأصوات وتداخلها أنْ تُميِّز بينها ، وتُرجع كل كلمة إلى صاحبها ؟

إنك لا تستطيع ، مع أن هذا جهر يسمعه الجميع ، أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيعلم كل كلمة ، ويعلم مَنْ نطق بها ويردّ كل لفظ إلى صاحبه . إذن : من حقه تعالى أن يمتنَّ بعلم الجهر ، بل إن علْم الجهر أعظم من علْم السرِّ وأبلغ .

وقوله تعالى ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ .. (١٦) ﴾ [لقمان] أى : وزن حبة الخردل ، وكانت أصغر شىء وقتها ، فجعلوها وحدة قياس للقلة ، وليس لك الآن أن تقول : وهل حبة الخردل أصغر شىء فى

الوجود ؟ فالقرآن ذكرها مثالاً للصِّغَر على قدر معرفة الناس بالأشياء عند نزوله ، أما من حيث التحقيق فقد ذكر القرآن الذرة والأقلَّ منها .

لذلك لما اخترعوا فى ألمانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد (أى الجزء الذى لا يتجزأ) ، واستطاعوا تفتيت الذرة ، ظنوا أن فى هذه العملية مأخذاً على القرآن ، فقد ذكر القرآن الذرة ، وجعلها مقياساً دينياً فى قوله تعالى : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾ [الزلزلة] لكن لم يذكر الأقلَّ منها ، ومعلوم أن الجزء أصغر من كله .

ونقول : قرأتم شيئاً وغابت عنكم أشياء ، ولو كان لديكم إلمام بكلام الله لعلمتم أن فيه احتياطاً لما توصلتم إليه ، ولما ستتوصلون إليه فيما بعد ، واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى عن الذرة : ﴿ **وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)** ﴾ [يونس]

بل نقول : إن الاحتياط هنا احتياط مركب ، فلم يقل صغير إنما قال (أصغر) وهذا يدل على وجود رصيد فى كلام الله لكل مُفتَّت من الذرة .

وقوله : ﴿ **فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦)** ﴾ [لقمان] ﴿ **فِي صَخْرَةٍ .. (١٦)** ﴾ [لقمان] أى : على حبكة الوجود ، وفى أضيق مكان ﴿ **أَوْ فِي السَّمَٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ .. (١٦)** ﴾ [لقمان] يعنى : فى المتسع الذى لا حدود له ، فلا فى الضيِّق المحكم ، ولا فى المتسع يخفى على الله شىء ﴿ **يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦)** ﴾ [لقمان] واستصحب حيثيات الإتيان بها بوصفين لله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)** ﴾ [لقمان]

وجمع بين هاتين الصفتين ؛ لأنك قد تكون خبيراً بالشيء عالماً بمكانه ، لكنك لا تستطيع الوصول إليه ، كأنْ يكون في مكان ضيق لا تنفذ إليه يدك ، وعندها تستعين بآلة دقيقة كالملقاط مثلاً ، فالخبرة موجودة ، لكن ينقصك اللطف في الدخول .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لطيف ، فمهما صَغُرت الأشياء ودقَّتْ يصل إليها ، فهو إذن عليم خبير بكل شيء مهما صغر ، قادر على الإتيان به مهما دقَّ ؛ لأنه لطيف لا يمنعه مانع ، فصفة اللطف هذه للتغلغل في الأشياء .

ونحن نعلم أن الشيء كلما دقَّ ولَطُف كان أعنف حتى في المخلوقات الضارة ، وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمَنْ بنى بيتاً في الخلاء ، وأراد أنْ يُؤمِّن نوافذه من الحيوانات والحشرات الضارة ، فوضع على النوافذ شبكة من الحديد تمنع اللصوص والحيوانات الكبيرة ، ثم تذكَّر الفئران والثعابين فضيَّق الحديد ، ثم تذكَّر الذباب والناموس فاحتاج إلى شيء أضيق وأدقّ ، إذن : كلما كان عدوك لطيفاً دقيقاً كان أعنف ، واحتاج إلى احتياط أكثر .

فقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان] يعني : لا يعوزه علم بالمكان ، ولا سهولة ويُسْر في الوصول إلى الأشياء .

كانت هذه بعض وصايا لقمان ومواعظه لولده ، ولم يأمره حتى الآن بشيء من التكاليف ، إنما حرص أنْ يُنبهه : أنك قد آمنت بالله وبلغَك منهجه واستمعت إليه ، فأطع ذلك المنهج في افعل ولا تفعل ، لكن قبل أنْ تباشر منهج ربك في سلوكك اعلم أنك تتعامل مع إله قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يغيب عنه شيء ، فادخل على المنهج بهذا الاعتقاد .

وإياك أنْ تتـغلَّب عليك شبـهة أنك لا ترى الله ، فـإنك إنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك ، واعلم أن عملك محسوب عليك ، وإنْ كان فى صخرة صماء ضيقة ، أو فى سماء ، أو فى أرض شاسعة .

ويؤكد هذه المسألة قوله تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى : إنْ كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّى أراكم ، فَلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ »[1] .

بعد ذلك يدخل لقمان فى وعظه لولده مجال التكليف ، فيقول له :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ ﴾

هذه مسائل أربع بدأها لقمان بإقامة الصلاة ، والصلاة هى الركن الأول بعد أنْ تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وعلمنا أن الصلاة لأهميتها فُرضت بالمباشـرة ، ولأهميتها جُعلت ملازمة للمؤمن لا تسـقط عنه بحـال ، أمـا بقـية الأركـان فـقـد تَسـقط عنك لسـبب أو لآخـر ، كالصـوم والزكاة والحج ، فـإذا سقطت عنك هذه الأركـان لم يَبْق مـعك إلا الشهـادتان والصلاة ؛ لـذلك جعلهـا النبى ﷺ عمـاد الدين[2] .

(١) ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين ، حيث جاء فى حلية الأولياء (١٤٢/٨) أن رجلاً قال لوهيب بن الورد : عظنى ، قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

(٢) حديث : « الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشُعَب بسند ضعفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .